استحبّوا أن يلي إذْ، لأن إذ للماضي و«حاضَرَ» للماضي، فهناك اتفاق بينهما في الزمن، ومشاكلة بينهما في الماضي يقول ابن يعيش :

«وإذا كان الفعل مضارعاً حسن تقديمه وتأخيره نحو: جئتك إذ يقولون زيد، وإذ زيد يقوم، وإذا كان ماضياً لم يحسن تأخيره، لايكادون يقولن : إذ زيد قام، وذلك لأن إذ ظرف زمان ماض، فإذا كان معك فعل ماض استحبوا إيلاءه إياه لتشاكل معناهما»(٩٢).

ثانيا : إذْ بين الاسمية والحرفية

يذكر النحويون أن إذْ قد تخرج عن الاسمية لتكون حرفاً يؤدي ماتؤديه حروف المعاني، ومع ذلك فهم ليسوا على اتفاق على هذه الحرفية، لأن بعضهم يرى أنها لاتخرج عن الظرفية. وإذْ هذه لها معان عديدة منها:

أ ــ إذْ التعليلية :

يمثل النحويون لـ «إذ» التعليلية بقول الله تعالى : «ولن ينفعكم اليوم إذْ ظلمتم أنّكم في العذاب مشتركون»،(٩٣) أي ولن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب لأجل ظلمكم في الدنيا»(٩٤).

وقد اختلف النحويون في إذْ هذه هل هي حرف أو اسم ؟

ينسب السيّوطيّ في «معترك الأقران» إلى سيبويه أنه يرى أن إذْ التعليلية حرف (٩٥).

ويذهب آخرون : إلى أنها ظرف بمعنى:، وقت، والتعليل في رأيهم مستفاد من قوة الكلام وسياقه، وليس من لفظ : إذْ

قال السّيوطي عند ذكره لـ «إذ» التعليلية: «هل هي حرف بمنزله لام العلة أو ظرف بمعنى الوقت، والتعليل مستفاد من قوة الكلام لامن اللفظ ؟ قولان المنسوب إلى سيبويه الأول»(٩٦).

وفي رأيي أن قوّة الكلام لادخل لها في التعليل، فالتعليل في أوضح تعريف له هو : تقرير ثبوت المؤثر لإثبات الأثر»(٩٧)، فإذا قلنا مثلاً: ذاكر الطالب ليـنجح، فإن المذاكرة مؤثر لإثبات الأثر الناتج عنها وهو النجاح، ولم يتحقق هذا التعليل إلا باللام التي من معانيها التعليل.

أما قوّة الكلام فإنها تعطى للأسلوب تأكيدا، ولم تعطه تعليلاً وفرق كبير بين التأكيد والتعليل.

ولو أنعمنا النظر في تقدير الذين يقولون بظرفية إذْ الواقعة للتعليل لرأينا أن في هذا التقدير بُعداً وتكلفاً، وتحميلاً للألفاظ بما لاتحتمل فقد رأوا أنه «إذا قيل: ضربته إذْ أساء، وأريد بـ «إذْ» الوقت اقتضى ظاهر الحال أن الاساءة سبب الضرب»(٩٨).

وفي نظري، لاداعى لتقدير الوقت في هذا المثال، لأن إذْ قامت مقام لام التعليل أى ضربته للإساءة، ومادامت تؤدي معنى التعليل، فإن المناسب أن تكون حرفاً كـ (لام) التعليل..

على أنه يترتب على جعلها ظرفاً إشكالات نحن في غنى عنها.

وقد أشار إلى هذه الإشكالات السّيوطىّ حينما بينّ أن إذْ في الآية السابقة لا تبدل من «اليوم» لاختلاف الزّمانين، ولا تكون ظرفاً لـ «ينفع» لأنه لايعمل في ظرفين، ولا«مشتركون»، لأن معمول خبَر «أنّ» وأخواتها لايتقدم عليها، ولأن معمول الصّلة لايتقدم على الموصول، ولأن اشتراكهم في الآخرة لافى ظلمهم»(٩٩).

ويحاول الزّمخشرىّ أن يخرج من هذه الإشكالات حينما يقدّر إذْ في الآية بأنّها دالة على الظرفية بما نصه: «فإن قلت : مامعنى قوله تعالى: «إذْ ظلمتم؟ قلت : معناه، إذ صحّ وتبيّن لكم، ولم يبق لكم، ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين، وذلك يوم القيامة، و«إذْ» يدل من اليوم، ونظيره:

* إذا ما انتَسَبْنا لم تَلِدْنى لئيمة *

«أى تبيّن أنى وَلَدُ كَرِيمةٍ »(١٠٠).

والمتدبّر لرأى الزمخشرى في نصه يرى أن «إذ» في الآية ليست للتعليل وإنّما هى بدل من اليوم، باقية على ظرفيتها، ولكن يواجه الزمخشرى بمشكلة مؤداها أن إذْ ظرف زمان ماض، «ولن ينفعكم وفاعله، «واليوم» المذكور ليس بماض، فكيف يبدل ماض من مستقبل؟

لقد أحسّ الزمخشرى بإشكال هذه القضية، ولكنه وجد مخرجاً لها وهو تنظيره بشطر البيت السابق.

ولوضوح هذا التنظير نقول: إن هذا الشطر تكملته:

* ولم تجدى من أن تُقِرّى بها بدًّا *

وهذا البيت لزائد بن صعصعة، وكانت له أمرأة فطمحت عليه، وكانت أمّها سرية فقال هذا البيت، وقبله:

رمَتْنِي عن قَوْسِ العَدُوِّ وباعَدَتْ عبيدةُ زاد اللّه مابيننا بُعْدا(١٠١)

والتنظير بهذا البيت قائم على أن جواب الشرط وهو: «لم تلدنى» ماضى فى المعنى، وإن كان مضارعاً في اللفظ، ومُضِىّ المعنى جاء إليه من «لم» الداخلة على الفعل المضارع حيث تقلب معناه إلى المضى بعد أن كان صالحاً للحال والاستقبال هذه ناحية.

وناحية أخرى، فإن ولادته حدثت منذ زمن بعيد، ولاشك أن هذا لايتفق مع إذا التى خصصت للمستقبل.

إنّ مضى جواب الشرط، والولادة التى حدثت في الزمن الماضى البعيد، كلاهما ليس مراداً للشاعر، وإنما المراد أننا إذا تفاخرنا يتبيّن لنا أننى لم تلدنى

لئيمة والتبيّن مستقبل لاماض، و بهذا التأو يل صار الجواب مستقبلاً كفعل الشرط .

والذي دفعنا إلى بيان هذا التأو يل هو التزام القاعدة التي وضعها النحو يون لفعل الشرط حيث اشترطوا فيه ألاّ يكون ماضى المعنى، فلا يجوز عندهم إن قام زيد أمس أقم معه.

فإنْ و وجه النحو يون بقوله تعالى : «إنْ كُنْتُ قُلْتُه فَقَدْ عَلِمتَه»(١٠٢) فهذا مؤول والمعنى كما يقول ابن هشام «إن يتبين أنى كنت قلته»(١٠٣).

والواقع أننا لو قلنا بحرفية إذْ، وأنها تقع للتعليل كـ (لام) التعليل لاستغنينا عن هذه التأو يلات العديدة، والتقديرات المختلفة التى لمسناها في رأى القائلين بالظرفية وعلى رأسهم الزمخشرى.

والسؤال الذي يقال هنا هل هناك آيات قرآنية، أو شواهد شعرية وقعت فيها إذْ تعليلية أومحتملة للتعليل غير ماذكر؟

ابن هشام يجيب عن هذا التساؤل فيقول :

«ومما حملوه على التعليل ــ قوله تعالى ــ «وإذْ لم يَهْتَدوا به فسيقولون هذا إفْكٌ قديم»(١٠٤)، ــ وقوله تعالى ــ «وإذْ اعتَزَلْتُموهم ومايعبدون إلا الله فأو وا إلى الكهف»(١٠٥).

(ومن الشعر) قول الفرزدق :

فأصبحوا قد أعادَ اللّهُ نِعْمَتهم إذْهم قُرَيْشٌ وإذ مامْثِلَهم بَشَرُ(١٠٦)

وقول الأعشى :

إنّ مَحَلاً وإنَّ مُرْتحَلاً وإنّ فى السَفْر إذْ مَضَوا مَهَلا(١٠٧)

أى إن لنا حلولاً في الدنيا، وإن لنا ارتحالاً عنها إلى الآخرة، وإن في الجماعة الذين ماتواقبلنا إمهالاً لنا، لأنهم مضوا قبلنا، و بقينا بعدهم. وإنما يصح ذلك كله على القول بأنّ إذْ التعليلية حرفٌ كما قدّمنا»(١٠٨).

ومن إجابة ابن هشام عن هذا التساؤل نعلم أنه من المؤيدين لتعليلية إذ وحرفيتها، ففي الآية الأولى يتضح التعليل ولا يحتاج إلى تأويل فلعدم اهتدائهم رموا ماجاءت به الرسل بأنه إفك قديم.

وفي الآية الثانية تعليل لاعتزال أهل الكهف قومهم، واعتزال عبادتهم المتمثلة في الأصنام.

وفي بيت الفرزدق السابق لتعدد الاستشهاد به في كتب النحو يذكره البغدادي في الخزانة متحدثاً عن إذ فيقول: «إذ في الموضعين للتعليل»(١٠٩)

وأما البيت الثاني فقد حلل معناه ابن هشام ــ فيما سبق ــ وفي ضوء هذا التحليل لانرى واضحاً إلا معنى التعليل.

على أن الجمهور لا يثبتون هذا القسم لـ «إذ» ويجرّدونها من معنى التعليل.

ومعظم المفسرين درجوا على هذا المنهج، واتخذوا مذهب الجمهور مذهبا فهاهو ذا الفخرا الرازي يقدّر الآية الأولى بقوله:

«واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذا الكلام أجاب عنه بقوله: «وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم»، والمعنى: أنهم لمّا لم يقفوا على وجه كونه معجزاً فلابد من عامل في الظرف في قوله: «وإذْ لم يهتدوا به» ومِنْ متعلّق لقوله: «فسيقولون»

وغير مستقيم أن يكون «فسيقولون» هو العامل في الظرف لتدافع دلالتي المضي والاستقبال، فما وجه هذاالكلام؟ وأجاب عنه بأن العامل في إذْ محذوف لدلالة الكلام عليه. والتقدير: وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم فسيقولون هذا إفك قديم»(١١٠).

و يقول العكبري في تقدير الآية الثانية مانصه:

«قوله تعالى: «وإذا اعتزلتموهم» إذ ظرف لفعل محذوف أي وقال بعضهم لبعض»(١١١).

ولتتضح معنى هذه الآية في ذهن القارىء مع وجود إذ الظرفية نرى أنه من المناسب تكملة النصّ لتتضح رؤية الظرفية فيها من ناحية، ولإزالة بعض الاشكالات في الآية من ناحية أخرى.

قال العكبريّ : «ومايعبدون» في «ما» ثلاثة أوجه:

أحدها : هى اسم بمعنى الذي و «الاّ اللّة) مستثنىً من «ما» أومن العائد المحذوف .

والثاني : هى مصدريّة، والتقدير : اعتزلتموهم وعبادتهم إلاّعبادة الله.
والثالث : أنها حرف نفي، فيخرج في الاستثناء وجهان: أحدهما هو منقطع، والثانى: هو متصل، والتقدير: وإذْ اعتزلتموهم إلا عبادة الله، أوما يعبدون إلا الله، فقد كانوا يعبدون الله مع الأصنام، أو كان منهم من يعبد الله»(١١٢).

وفي ختام بحث إذْ التعليلية نحب أن نسجل في هذا البحث بيتاً للمتنبىّ أثار قضية فكرية في نفس ابن هشام، ومع أن المتبنىّ لايستشهد بشعره في النحو لتأخر زمانه عن أزمنة الفصاحة التي سبقته، فإن ابن هشام ذكر بيته لأمرين

الأمر الأول : أن هذا البيت اشتمل على إذ وهى تحتمل التعليل والظرفية

والأمر الثاني : أن أعرابه لوجود إذْ فيه يحتاج إلى إيضاح. أماّ البيت فهو.

أمِنَ ازديارِكِ في الدُّجى الرُّقباءُ إذْ حَيثُ كُنْتِ من الظَّلام ضياءُ(١١٣)

يقول ابن هشام: «أضيفت إذ إلى الجملة الاسمية، فاحتملت الظرفية والتعليلية في قول المتنبى [ثم ذكر البيت السابق.]
وشرحه : أن أمن فعل ماض فهو مفتوح الآخر، لامكسورة على أنه حَرْف جرٍّ كما توهّم شخص أدّعى الأدب في زماننا، وأصرّ على ذلك. والازديار أبلغ من الزيارة كما أن الاكتساب أبلغ من الكسب، لأن الافتعال للتصرف، والدال بدل عن التاء، و«في» متعلقّة به لابأمنَ، لأن المعنى أنهم أمنوا دائماً أن تزورى في الدّجى.

وإذْ : إماّ تعليل أو ظرف مُبْدل من مَحلّ في «الدجى»، و «ضياء» مبتدأ خبره:

«حيث»، وابتدىء بالنكرة لتقدم خبرها عليها ظرفاً، ولأنها موصوفة في المعنى، لأن من الظلام صفة لها في الأصل، فلما قدّمت عليها صارت حالاً منها.

و«من» للبدل، وهي متعلقة بمحذوف، «وكان» تامّة، وهي وفاعلها خفض بإضافة «حيث». والمعنى : إذ الضيّاء حاصل في كل موضع حصلت فيه بدلاً من الظلام»(١١٤).

ب ــ إذْ الفجائية

يبدو أن مصطلح المفاجأة أو إذْ الفجائية مصطلح متأخر، نقول ذلك لأننا لم نجد كلمة المفاجأة في كتاب سيبويه حينما تعرض لبحث إذْ الفجائية. وإن غابت كلمة (المفاجأة) في كتاب سيبويه فلم يغب معناها، فمعنى المفاجأة قرّرهُ سيبويه حينما يقول في «إذْ» ، و«إذا» اللتان تقعان للمفاجأة : «وتكون [أى إذا] ــ للشيء توافقه في حال أنت فيها، وذلك قولك: مررت فإذا زيد قائم، وتكون إذْ مثلها أيضاً.. وذلك قولك : بينما أنا كذلك إذ جاء زيد، وقصدت قصده إذا نتفخ على فلان، فهذا لماتوافقه، وتهجم عليه في حال أنت فيها(١١٥).

وواضح أن نص سيبويه يشير إلى المفاجأة حينما يقول: «وتكون للشيء توافقه في حال أنت فيها». وهذا المعنى هو بعينه معنى المفاجأة.

والسؤال الذي يطرح نفسه في معرض الحديث عن إذْ الفجائية هو: هل هي حرف أو اسم يحمل معنى الظرفية؟

لم يحدّد سيبويه معنى إذْ حينما تقع للمفاجأة، هل هي حرف أو اسم إنه سكت بإزائها على حين لم يسكت بإزاء إذا الفجائية حيث قرّر ظرفيتها عند الحديث عنها حينما يقول:

«وأما إذا فلما يستقبل من الدهر، وفيها مجازاة، وهي ظرف، وتكون للشيء توافقه في حال أنت فيها»(١١٦).

ومن أجل صَمْت سيبويه عن إبداء رأيه في إذْ التى للمفاجأة هل هى حرف او اسم احتدم الجدل بين علماء النحو في معناها:

رأى المبرّد ؟:

يرى المبّرد أن إذْ التى للمفاجأة اسم باق على ظرفيته، وهى في رأيه ظرف مكان في جواب: «بينا» أو «بينما»، وهى منصوبة لما بعدها، و«بينا» و«بينما» ظرفا زمان له.

قال الرّضى موضحاً رأى المبرّد: «فمعنى: بينا زيد قائم إذ رأى هنداً: رأى زيد هنداً بين أوقات قيامه في ذلك المكان أى في مكان قيامه»(١١٧). فالمفاجأة في رأى المبرّد لم تعط لـ «إذ» معنى الحرفيّة، وانما هى باقية على ظرفيتها. والجديد في رأى المبّرد أنّها ليست للظرفية الزمانية، وانما هى للظرفية المكانية، و بينا، و بينما قبلها تدلاّن على الظرفية الزمانية وهذا هو التفسير لرأى المبرد الذي أشار اليه الرضى حينما قدر في المثال السابق:

رأى زيد هنداً بين أوقات قيامه، فـ «بين» مضافة للزمان، و بهذه الإضافة اعتبرت للزمان، و«إذْ» تعنى المكان، وهو المشار إليه في عبارة الرّضى: «في ذلك المكان» التي تساوى في معناها ــ إذْ الفجائية .

أما عامل النصب في إذْ المكانية عند المبرد في المثال السابق هو مابعد إذْ المتمثل في الفعل «رأى»، في المثال .

٢ ــ رأى ابن جنّى وابن الباذش :

يرى ابن جنى وابن الباذش أن إذْ الفجائية ظرف، وعاملها على الظرفية الفعل الذي بَعدها، لأنها غير مضافة إليه، وعامل: بينا، و بينما محذوف يفسّره الفعل المذكور.

و يوافقهما (الشلوبين) في ظرفية إذْ غيرْ أنه لايرى أن عاملها الفعل الذي يعدها، لأن المضاف إليه لايعمل في المضاف، ولافيما قبله، وانما العامل في رأيه محذوف يدل عليه الكلام، وإذْ : بدل من بينا أو بينما(١١٨).

٣ ــ رأى ابن برىّ:

و يرى ابن برىّ أن إذْ الفجائية حرف، و يقدّر العامل في «بينا» و «بينما» مابعد إذْ الفجائية(١١٩).

وهو مذهب يستريح اليه الرضى حيث يقول: «الأولى القول بحرفيّة المفاجأة»(١٢٠).

٤ ــ رأى أبى حيّان:

يرى أبو حيان: أنها حرف لمعنى المفاجأة إقراراً لها على ماستقر لها»(١٢١).

٥ ــ رأى ابن مالك:

أنها حرف مؤكد في هذا الأسلوب.(١٢٢).

٦ ــ رأى ابن الشجرىّ:

يرى أنها حرف زائد إذا وقعت بعد «بينا» و «بينما» خاصة، قال: لأنك إذا قلت: بينما أنا جالس إذ جاء زيد فقدرتها غير زائدة أعملت فيها الخبر، وهى مضافة إلى جملة: جاء زيد، وهذا الفعل هو الناصب لـ «بين»، فيعمل المضاف إليه فيما قبل المضاف»(١٢٣).

* * *

هذه هى قضية الخلاف في إذ الفجائية هل هى اسم أو حرف؟، وقد عرضنا هذه القضية بجوانبها المختلفة، وقد لمسنا من خلال هذا العرض أن لكل رأى دليله، ولكل قول حجته.

وإن كنت أميل الى الرأى الذي يقول: : إنها حرف، لأن معنى المفاجأة معنى الاستقبال، والاستقبال يؤدي بحرف السّين وسوف وهو كمعنى التعليل، والتعليل حرف يؤدي معناه باللام، فلم لايكون معنى المفاجأة يؤدي بـ «إذْ»، فيكون حرفاً كغيرها؟

وهناك قضية أخرى تتعلق بـ «إذ» غير قضية الحرفية او الاسمية وهي: قضية وقوعها جواباً لـ «بينا» و «و بينما» .

ومن أجل الخلاف حولها، أفردها بالبحث التالي :

قضية وقوع إذ الفجائية جواباً لـ «بينا» و «بينما»

للحريرىّ في (درّة الغوّاص) بحث جيد في وقوع إذ التي للمفاجأة بعد بينا أو بينما، لأن القائم في أذهان بعض النحويين أن وقوع إذ هذه بعد: بينا، أو بينما أمر لازم، وضرورة حتمّية، وأسلوب واجب بحيث إنه إذْ لم تقع إذْ في جواب: بينا، أو بينما عُدّ هذاالأسلوب ضعيفاً أو قليل الاستعمال، فأراد الحريرىّ أن يزيل هذا الوهم، و يبدّد هذا الفهم ليؤكد لهؤلاء النحويين أنه ليس من الضّرورىّ أن تقع إذْ جواباً لهذين الظّرفين، بل إن الكثير الشائع أن يأتى جوابهما مجرداً منها وهو خلاف الشائع عند النحويين .

ولطرافه بحثه، وسلامة تدليله، وجمال عرضه أترك للقارىء فرصة الاستمتاع به .

يقول الحريريّ مانصّه : «و يقولون: بينا زيد قام إذ جاء عمرو فيتلقّون «بينا» بـ «إذ»، والمسموع عن العرب: بينا زيد قام جاء عمرو بلا إذْ ، لأن المعنى فيه بين أثناء الزمان جاء عمرو، وعليه قول أبى ذؤيب:

بَيْنا تَعَنُّقِه الكُماة ورَوْعِه يَومًا أُتيح له جَرِىءٌ سَلْفَعُ(١٢٤)

فقال : أتيح، ولم يقل : إذْ أتيح.

وهذا البيت ينشد بجرّ «تعنقه» ورفعه، فمن جرّ جعل الألف في «بينا» ملتحقة لإشباع الفتحة لأن الأصل فيها: «بين»، وجرّ «تعنقه» على الإضافة.

ومن رفع رفعه على الابتداء، وجعل الألف زائدة ألحقت بـ «بين» لتوقع بعدها الجملة كما زيدت «ما» في بينما لهذه العلة.

وذكر أبو محمدّ بن قتيبة قال: سألت الرّياشي عن هذه المسألة، فقال: إذا ولى لَفْظة: «بينا» الاسم العلم رفعت، فقلت ؛ بينا زيد قام جاء عمرو وإنْ وليها المصدر فالأجود الجرّ كهذه المسألة .

وحكى أبو القاسم الآمدىّ في أماليه عن أبى عثمان المازنىّ، قال: حضرْت أنا و يعقوب بن السّكيت مجلس محمد بن عبدالملك الزيات، فأفضنا في شجون الحديث الى أن قلت: كان الأصمعى يقول: بينا أنا جالس إذ جاء عمرو فقال ابن السّكيت: هذا كلام الناس، قال: فأخذت في مناظرته، وإيضاح المعنى له، فقال لى محمدّ بن عبدالملك دعْنى حتى أبيّن له مااشتبه عليه، ثم التفت إليه، وقال له: مامعنى بينا، فقال: حين، قال : أفيجوز أن يقال: حين جلس زيد إذ جاء عمرو فسكت. فهذا حكم: «بينا». وأمأ بينما فأصلها أيضاً: بين، فزيدت عليها «ما» لتؤذن بأنها قد خرجت عن بابها بإضافة «ما» إليها.

وقد جاءت في الكلام تارة غير ملتقاة بـ «إذ» و «إذا» اللذين للمفاجأة، كما قال الشاعر:

* فبينما العُسْرُ إذْ دارت مياسيرُ * (١٢٥)

وكقوله في هذه القطعة :

وبَيْنَمَا المَرءُ في الأحْيَاء مغْتبطٌ إذا هُوَ الرَّمْسُ تَعْفُوه الأعاصيرُ

فتلقى هذا الشاعر «بينما» في البيت الأول بـ «إذْ»، وفي الثاني بـ «إذا» وليس ببدع أن يتغير حكم «بين» بضمّ «ما» إليه، لأن التركيب يزيل الأشياء عن أصولها، ويحيلها عن أوضاعها ورسومها، ألا ترى أن :«ربّ» لايليها إلا الاسم، فإذا إتصلت بها «ما» غيرت حكمها، وأولتها الفعل كما جاء في القرآن «ربما يودّ الذين كفروا»(١٢٦). وكذلك «لم» حرف، فإذا زيدت عليها «ما» وهى أيضاً حرف صارت «لمّا» اسماً في بعض المواطن بمعنى : حين نحو قوله تعالى: «ولما جاءت رُسُلنا لُوطاً»(١٢٧)، وهكذا، «قلّ»، و«طال» لايجوز أن يليهما الفعل، فإذا وصلتا بـ «ما» وليهما الفعل كقولك: طالما زرتك،وقلما هجْرتُكَ»(١٢٨).

في ضوء نص الحريرى الذي استوعب فيه قضية إذ الفجائية في جواب بينا أو بينما أستطيع أن أقول: إن استدلال الحريرى على جواز انفكاك جواب بينا، و بينما من إذْ قد استقاه من نصّ سيبو يه حينما مثل سيبو يه لـ «إذ» بمثالين، وهما: بينما أنا كذلك إذ جاء زيد، وقصدت قصده إذا نتفخ على فلان.

وعلق سيبو يه على هذين المثالين بقوله : «فهذا لما توافقه، وتهجم عليه في حال أنت فيها»(١٢٩).

ومع أن نص سيبو يه يجيز أن تقع إذ جواباً لهما، فإن كثيراً من النحو يين وعلى رأسهم الأصمعىّ ينكرون هذا، و يقولون: لاحاجة إلى إذ ألا ترى أنك تقول : حين زيد جالس قام عمرو، و بينما بمنزلة : حين، قالوا: وأشعارهم وردت بلا إذْ ، ومما استشهدوا به بيت أبى ذؤيب»(١٣٠) الذي سبق ذكره.

والواقع أن سيبو يه يؤيده في رأيه، و يسنده في قوله بعض أشعار جاءت على غير نهج أسلوب أبى ذؤيب وإذا كان الأمر كذلك، فلاداعى لإنكار الأصمعى ومن تبعه لهذا الأسلوب، وإنما المنهج السليم أن يقال: جواز ذكر إذ بعد بينا أو بينما وجواز عدم ذكرهما، ومن غير شك فهذا تنوع في الأساليب، واتساع في التعبير، وحرية في الاستعمال.

ومن الشواهد التي تؤيد سيبو يه قال الشاعر :

بينما نحن بالكثيب ضُحى إذْ أتى راكب على جمله.(١٣١)

وقول الشاعر :

استقدر اللهَ خَيْراً وارضينّ به فبينما العُسر إذْ دارت ميَاسيرُ(١٣٢)

ومن ذلك قول حُمَيدْ الأرقط :

بَيْنا الفتى يَخْبِط في غَيشاتِه إذْ انْتمى الدَّهرُ الى عِفْراته(١٣٣)

وقول القطامى :

فبينا عُمَيرٌ طِامحُ الطَّرْفِ يَبْتَغى عبادَة إذ وَاَجْهْتَ أضْجَم ذَاخِرْ(١٣٤)

وليس هذا الأسلوب خاص بالشّعر، فقد ورد في الحديث :
«بيننا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجلٌ...»(١٣٥).

فهذه الشواهد أدلّه قويّة تُرجّح رأى سيبويه في جواز وقوع إذ الفجائية جواباً لهذين الظرفين.

وليس معنى ذلك أن وجودها في مثل هذه الأساليب ضرورة لابد منها والتزام لابد من المحافظة عليه، وذلك لأنه كما وردت إذ جواباً في بعض الأساليب وردت أساليب أخرى مجردة من إذ .

ومن هذه الأساليب بيت أبى ذؤيب السابق.

ومنها أيضاً قوله :

كُنْ كيف شئتِ فقْصُرك الموتُ لامَزْحَلٌ عنه ولافَوْتُ
بينا غِنى بَيْتٍ وبهجتِه زال الغنِى وتقوّض البيتُ

وقول ابن هرمة في باب النسيب من الحماسة :

بينما نَحْنُ بالبلاكث فالقا ع سِراعاً والعِيسُ تَهوِى هُوِيّا
خَطَرَتْ خَطْرةٌ على القلب من ذكـ ـراك وهنًا فما استطعت مُضِيّا(١٣٦)

على أنه يلاحظ أن بيت أبى ذؤيب الذي استشهد به الحريرى على جواز تجرّد جواب «بينا» من إذْ، أضيفت «بينا» فيه للمصدر الذي بعدها وهو: «تعلّقه»، ومعنى ذلك أن «بينا» أضيفت إلى الأسماء المفردة. و بعض النحويين لايمنعون ذلك، لأن المصادر فيها معنى الفعل وذلك للحمل على حين كقولك: «بينا قيام زيد أقبل عمرو، أى حين قيام هذا أقبل ذاك»(١٣٧).

و يبين لنا البغداديّ في الخزانةً أنه إذا وقع بعدها اسم جوهر لم يكن إلا رفعاً نحو: بينا زيد في الدار أقبل عمرو لأنها ظرف زمان فلا تضاف إلى جثة كما لا تكون خبراً عنها»(١٣٨).

ومن الجدير بالذكر أن نسجل هنا أن الأصمعىّ «كان يقول : بينا يضاف إلى المصادر خاصة، والنحويون يخالفونه، و يقولون: بينا و بينما عبارتان

للحين، وهما مبهمتان لا تضافان الا إلى الجمل التي تبينها فإذا قلت : بينا أنا جالس طلع زيد فالمعنى: حين أنا جالس أو وقت أنا جالس طلع زيد»(١٣٩).

ومعنى ذلك أن معظم النحويين يمنعون اضافة «بينا» إلى مابعدها فإذا اعترض عليهم ببيت أبى ذؤيب، قالوا: إنّ «رواية النحويين والناس : «بينا تعنقة الكماة، فيرتفع «تعنقه» بالابتداء و يكون خبره مضمراً كأنه قال : بينا تعنقه الأبطال حاصل معهود ومعتمد مألوف أتيح له يوماً رجل جرىء»(١٤٠).

ويجدر بنا، ونحن نعالج قضية اذ الفجائية في جواب بينا و بينما أن نشير إلى أن هناك فرقاً بين الأسلوبين، أو بعبارة أخرى بين الصيغتين، ولانبالغ إذا قلنا قد تتعدد الدلالة، و يتنوع الأسلوب، وذلك ماسنناقشة في النقطة التالية :

الفرق بين «بينا» و«بينما» في الدلالة والاستعمال:

إن أصل «بين» كما يقول الرّضى: «أن يكون مصدراً بمعنى : الفراق، فتقدير: جلست بينكما أى مكان فراقكما، وتقدير: فعلت بين خروجك ودخولك أى زمان فراق خروجك ودخولك، فحذف المضاف ،، وأقيم المضاف إليه مقامه»(١٤١).

ومن هذا النص نتبين أن : «بين» تستعمل في المكان والزمان، لأنه: «إنْ أضيف إلى الأمكنة أوجبت غيرها فهو للمكان نحو: بين الدار، و بين زيد وعمرو.

وإن أضيف إلى الأزمنة فهو للزمان نحو: بين يوم الجمعة والأحد. وكذا إن أضيف إلى الأحداث نحو: بين قيام زيد وقعوده إلاّ أن يراد به مجاز المكان نحو قولك: زيد بين الخوف والرجاء، استعيرت لما بين الحدثين مكاناً، فلهذا وقع «بين» خبراً عن الجثة»(١٤٢).

وتوضيح العبارة الأخيرة في نصّ الرّضى: أن بين الحدثين: الخوف

والرجاء مدة زمنية، وقد استعير هذا الزمن الواقع بين الحديثن للمكان، فكأن مابين الحدثين، الخوف والرجاء مكان، وهذا المكان متمثل في : «بين» .

ومن أجل وقوع «بين» مكاناً على جهة الاستعارة صحّ أن تكون خبراً عن الذوات التى عبرّ عنها الرّضى بالجثة، وذلك لأن ظرف الزمان لايقع خبراً عن الذوات فلا نستطيع أن نقول مثلاً: محمد الساعة ولاخالد اليوم، على حين يمكننا أن نقول: المذاكرة الساعة، والصوم اليوم، وهذا بسبب أن ظرف الزمان لايقع خبراً للذوات، وإنما يقع خبراً لأسماء المعانى، و بخلاف ذلك ظرف المكان الذي يقع خبراً عن الذوات مثل الجامعة أمامك، وخبراً عن المعانى مثال: الاستعداد عندك.

و يضيف الرّضى حقيقة أخرى لـ «بين» حينما يقرر أن : «بين» حينما تلحق بها الألف لتكون: «بينا» أو «ما» لتصير: «بينما» لا تكون إلا للزمان حينما تضاف إلى الجمل، لأنه لايضاف من ظروف المكان إلى الجمل إلاّ حيث.

قال الرضى: «وأما إذا كفت بـ «ما» أو الألف وأضيف إلى الجمل لايكون إلا للزمان لما تقدم أنه لايضاف من المكان الي الجمل الاّ حيث»(١٤٣).

وأما الفرق بين: «بينا» و «بينما» فهو كما يقول اللسان: قال أبو عمرو:(١٤٤) سمعت المبرّد يقول: إذا كان الاسم الذي يجيء بعد «بينا» اسما حقيقياً رفعته بالابتداء، وان كان مصدراً خفضته و يكون: «بينا» في هذا الحال بمعنى ؛ بين . قال : فسألت احمد بن يحيى عنه، ولم أعلمه قائله، فقال هذا الدُّرّ»(١٤٥).

وأما بينما فإن الأمر فيها يختلف عن «بينا» وذلك لأن الاسم بعدها مرفوع دائماً سواء كان اسم ذات أو اسم معني.
قال في اللسان: «وأما بينما فالاسم الذي بعده مرفوع وكذلك المصدر»(١٤٦).

في ضوء هذين النصين نصل الى الحقائق الآتية بالنسبة لهاتين الصيغتين:

أ ــ مابعد «بينا» إن كان اسماً حقيقياً و يعنى بالاسم الحقيقي المقابل لاسم المعنى ــ رفع هذا الاسم .

ب ــ إن كان مابعد «بينا» اسم معنى جرّ بالإضافة وحينئذ تكون «بينا» بمعنى «بين»، وإذا كانت كذلك فانها تأخذ حكم: بين في الإضافة . و بين كما علمنا «لايضاف إلا لمايدل على أكثر من الواحد، أوما عطف عليه غيره بالواو دون سائر حروف العطف نحو: المال بين القوم، والمال بين زيد وعمرو»(١٤٧)

وظاهر الأمر أن «بينا» بالألف لا تضاف إلى ماتضاف إليه «بين» لأن «بين» إذا أضيف إليها الألف لا تكون إلا للزمان، وإضافة مايدل على الزمان إلى الجمل أمر مقرّر في الأساليب العربيّة، وجائز استعمالا مثل : أتيتك زمن الحجاج أمير، أو أوان الخليفة عبدالملك.

اما بين كما يقول الرّضى في نص سبق ذكره ــ إنْ أضيف إلى الامكنة فهو للمكان، وإن أضيف إلى الأزمنة فهو زمان.

حـ ــ إذا كانت الجملة مبدوء بـ «أينما» فالاسم الذي بعدها مرفوع دائماً.

هذه هى أهم الفروق بين «بينا» و «بينما»، وقد عرفنا من قبل أن أصل هاتين الصيغتين: «بين»، و بإضافة اللاحقتين الألف و «ما» عليها تغير الحكم من الناحية الوظيفية، ومظاهر هذا التغير مايأتي:

أ ــ وقوعهما في أول الجملة، لأنهما ظرفان يبتدأ بهما.

ب ــ أن يكون لهما جواب، مقرون بـ «إذ» أو غير مقرون.

٣ ــ أن تضافا إلى الجمل

وفي هذا التغيير في الحكم، والدلالة، والوظيفة يقول الحريرى: «ومَنْ جَعل الألف زائدة ألحقت بـ «بين» لتوقع بعدها الجملة، كما زيدت «ما» في بينما لهذه العلة»(١٤٨).

ولم يكتف الحريرى بهذه العلة بل أضاف إليها دليلاً آخر حينما يقول: «وليس ببدع أن يتغير حكم «بين» بضم «ما» إليه، لأن التركيب يزيل الأشياء عن أصولها، ويحيلها عن أوضاعها ورسومها، ألا ترى أن : «رب» لايليها إلا الاسم، فإذا اتصلت بها «ما» غيرت حكمها، وأوليتها الفعل كما جاء في القرآن: «ربما يود الذين كفروا»(١٤٩).

وكذلك : «لم» حرف، فإذا زيدت عليها «ما» وهى أيضاً حرف صارت «لمّا» اسماً في بعض المواطن بمعنى: حين نحو قوله تعالى: «ولما جاءت رُسُلنا لوطا»(١٥٠).

وهكذا، «قَلّ» و «طال»، لايجوز أن يليهما الفعل، فإذا وصلتا بـ «ما» وليهما الفعل كقولك: طالما زرتك، وقلما هجرتك»(١٥١).

وقبل أن ننهى الحديث عن إذ التي للمفاجأة أحب أن أشير الى خطأ مشهور لايسلم منه كثير من المثقفين حتى الخاصّة، فقد درجوا أن يقولوا مثلا: العرب مختلفون بينما الأعداء متفقون،وهو أسلوب لا تعرفه العربية، لأن «بينا» و «بينما» تقعان في أول الجملة حيث يبتدأ بهما، ولا تقعان في وسط الكلام. والصواب أن يقولوا في مثل هذا التعبير:

العرب مختلفون على حين الأعداء متفقون.

ج ــ إذْ الزّائدة :

هل وقوع إذْ زائدة حقيقة مسلمّ بها في الدراسة النحوية؟

الواقع أنها قضية ثار حولها الجدل، واحتدم النزاع، وتصارعت الأفكار، ولعل أول من فتح باب هذه القضّية إمام اللغويين والنحويين أبو عبيدة معمر بن المثنى، فقد ادّعى أن إذ تقع زائدة.

ومعنى زيادتها أنها لغو لاتحمل معنًى، ولا تعطى بياناً، ولا تفيد شيئاً، وهذا أمر غريب، وغريب حقاً من أبى عبيدة أن يقول ذلك، لأن إذْ في أصل

وضعها جاءت لمعنًى، ولو حكمنا باسميتها، وهو الكثير الغالب فإنه من الخطأ أن نقول بزيادتها في حالة الاسمّية، لأن أقرب تعريف للاسم في النحو : هو اللفظ الدّال على معنى، فكيف إذن يجعلها أبو عبيدة لتصبح بلامعنى، وبخاصة في كتاب الله.؟

ولنترك أبا عبيدة يعرض رأيه في هذه القضية:

يقول أبو عبيدة في قوله تعالى : «إذْ قالت امرأة عمران ربّ، إنى نَذَرْتُ لك ما في بَطْنِى مُحَرراً، فتقبَّلْ منّى»(١٥٢).

قال الفخر الرازى : قال أبو عبيدة: إنها زائدة لغواً، والمعنى : قالت امرأة عمران، ولاموضع لها من الإعراب»(١٥٣).

وكرّر أبو عبيدة القول بزيادتها في موضع آخر، فقد قال في قوله تعالى : «وإذ قال ربّك للملائكة إنّى جاعلٌ في الأرض خليفة»(١٥٤).

قال أبو جعفر الطبرىّ : «زعم بعض المنسوبين إلى العلم بلغات العرب من أهل البصرة أن تأويل قوله: وإذْ قال ربك: وقال ربك، وأن : إذْ من الحروف الزائدة، وأن معناها الحذف»(١٥٥).

ومن غير شك أن قائل ذلك في نصّ الطبري هو أبوعبيدة، لأن الفخر الرازى صّرح باسمه في النص الذي سقته قبل نصّ الطبري.

وموضع التساؤل هو لماذا لم يصّرح بذكره الطبرىّ كما صّرح بذكره الفخر الرازى؟ يبدو لى أن الطبري تجاهل ذكر اسمه لسخافة رأيه في قضية زيادة إذْ، وأنه في نظر الطبرىّ لم يكن على قدر كبير من العلم يجعله يصرّح باسمه، والاّ فما سرّ هذا التعبير الذى يحمل الاستخفاف حينما يقول: «زعم بعض المنسوبين إلى العلم» إن كلمة: المنسوبين إلى العلم هي الاستخفاف بعينه إن لم تكن تحمل معنى الاستخفاف .

والواقع أن الطبري لم يكن المنفرد بين العلماء في هذا الرأى، لأنه يبدو لى أن أباعبيدة وإن كان كما يقول يزيد بن مرّة : «ماكان أبوعبيدة يفتّش عن

علم من العلوم إلا كان مَنْ يفتّشه عنه يظن أنه لايحسن غيره، ولايقوم بشيء، أجودَ من قيامه به»(١٥٦) أو كما يقول أبو نواس عنه: «أديم طُوِيَ على علم»(١٥٧) ــ ليس له باع طويل في علم العربية لأنه كما يقول أبو قتيبة: كان الغريب أغلب عليه وأيام العرب وأخبارها»(١٥٨) والعلم بالغريب غير العلم بالتراكيب. والنص المؤيد لرميه بالضعف في النحو أو التراكيب العربيّة ماذكره أبو حاتم حينما قال عنه:

«وكان مع علمه إذا قرأ البيت لم يقم إعرابه، و ينشده مختلف العروض»(١٥٩) ولاشك أن هذا الضعف في النحو هو الذي حمل الطبريّ على أن يتجاهل اسمه، ويجعله منسوباً إلى العلم، ولم يجعله من أهل العلم. على أية حال، فإن عبارة الطبري تحمل في طياتها الغض من قدر أبي عبيدة في مجال النحو والإعراب .

نقد رأي أبي عبيدة :

نقد الزجاج :

قال الزجاج : «لم يصنع أبو عبيدة في هذا شيئاً، لأنه لايجوز إلغاء حرف من كتاب الله تعالى، ولايجوز حذف حرف من كتاب الله تعالى من غير ضرورة»(١٦٠).

نقد الطبريّ :

قال الطبري: «والأمر في ذلك بخلاف ماقال، وذلك أن إذْ حرف يأتي بمعنى الجزاء، و يدلّ على مجهول من الوقت، وغير جائز إبطال حرف كان دليلاً على معنى في الكلام»(١٦١).

و بعد نقد الزجاج والطبري لرأي أبي عبيدة، وإنكار زياد إذ في الآيتين نعرض لأدلة القائلين بعدم زيادة إذْ ، وأنها ماوضعت في الكلام إلا لتؤدي معنى من المعاني.

ونتناول أراءهم في الآية الأولى وهى : «وإذا قالت امرأة عمران» الخ ثم رأى الطبري في الآية الثانية وهى: «وإذ قال ربك للملائكة» وسأحاول أن أبدى رأيى في هذه القضية بعد ذلك إن شاء الله:

ـ رأى المبرّد في الآية الأولى :

يرى المبرّد في الآية الأولى وهى آية آل عمران أنَّ إذْ معمول الفعل محذوف تقديره: اذكر، وتبعه الأخفش حيث وافق على رأيه، وقدّر تقديره، قال الفخر الرازى مانصه: «قال الأخفش والمبرّد: التقدير: اذكر إذ قالت امرأة عمران»(١٦٢).

رأى الزجاج :

يرى الزجاج : أن التقدير ليس «اذكر« كما يرى المبرّد والأخفش،وإنما هو: اصطفى المذكورة قبل «إذْ ».. ونص رأيه كما ذكره الفخر الرازى «قال الزجاج: التقدير: واصطفى آل عمران على العالمين إذ قالت امرأة عمران»(١٦٣)

نقد رأى الزجاج :

طعن ابن الأنبارىّ في رأى الزّجاج، وقال : «إن الله تعالى قرن اصطفاء آل عمران باصطفاء آدم ونوح .

ولما كان اصطفاؤه تعالى آدم ونوحاً قبل قول امرأة عمران استحال أن يقال: إن هذا الاصطفاء مقيد بذلك الوقت الذي قالت امرأة عمران هذا الكلام فيه»(١٦٤).

و يدافع الفخر الرّازى عن رأى الزّجاج، وعن دفع الاعتراض الذي وجه إلى رأيه قائلاً:

ويمكن أن يجاب عنه بأن أثر اصطفاء كل واحد إنما ظهر عند وجوده وظهور طاعاته، فجاز أن يقال: إن الله اصطفى آدم عند وجوده ونوحاً عند وجوده، وآل عمران عندما قالت امرأة عمران هذا الكلام»(١٦٥).

رأى آخر:

يرى بعض العلماء أن إذْ في الآية متعلق بقوله تعالى: «سميع عليم» ولم ينص الفخر الرازى على أصحاب هذا الرأى، و يبين لنا مَنْ هم بدلاً من كلمة: «بعضهم».

قال الفخر: «قال بعضهم: هذا متعلق بما قبله، والتقدير: والله سميع عليم إذ قالت امرأة عمران هذا القول»(١٦٦).

و يرى الفخر أن هذا الرأى يحمل في طياته اعتراضاً أو سؤالاً، وقد سجل هذا الاعتراض أو هذا السؤال وأجاب عنه.

قال الفخر: «فإن قيل: إن الله سميع عليم قبل أن قالت امرأة عمران هذا القول، فما معنى هذا التقييد؟

قلنا: إن سمعه تعالى لذلك الكلام مقَيدٌ بوجود ذلك الكلام، وعلمه تعالى بأنها تذكر ذلك مقيد بذكرها لذلك، والتغيير في العلم والسمع إنما يقع في النسب والمتعلقات»(١٦٧).

موقع إذْ في الآية الثانية وهى آية البقرة:

أنكر أبو جعفر الطبرى بشدة وقوع إذ زائدة في القرآن الكريم، وحمل على أبن عبيدة في قوله بذلك، لأن القرآن الكريم لايوجد فيه كلام زائد، لأن كل كلمة من كلماته تؤدي معنى، لأنها سيقت من أجل هذا المعنى، فالقول بزيادة بعض الكلمات في القرآن كـ «إذ» لغو من القول، وضرب من الهذيان، ولم يكتف أبو جعفر بالنقد العام، ولكنه نقد نقداً علميًا، مبيناً رأيه في إذْ هذه، وأنها جاءت لغرض، وسيقت لمعنى، وسجلت لهدف.

قال: لو أبطلت إذْ، وحذفت من الكلام لاستحال عن معناه الذي هو به وفيه «إذْ».

فإن قال قائل : فما معنى ذلك؟ وماالجالب لـ «إذ» إذا لم يكن في الكلام قبله مايعطف به عليه.

قيل له: قد ذكرنا فيما مضى أن الله جل ثناؤه خاطب الذين خاطبهم بقوله: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم»(١٦٨) بهذه الآيات، والتى بعدها فوبخهم مقبحاً لهم سوء فعالهم، ومقامهم على ضلالهم مع النعم التي أنعمها عليهم وعلى أسلافهم، ومذكّرهم بتعديد نعمه عليهم وعلى أسلافهم بأسَهُ أن يسلكوا سبيل من هلك من أسلافهم في معصية الله، فيسلك بهم سبيلهم في عقوبته، ومعرّفهم ماكان منه من تعطفه على التائب منهم استعتاباً منه لهم، فكان مما عدّد من نِعَمِه عليهم أنه خلق لهم مافى الأرض جميعاً، وسخرلهم مافى السموات من شمسها وقمرها، ونجومها، وغيرذلك من منافعها التي جعلها لهم، ولسائربنى آدم معهم منافع، فكان في قوله: «كيف تكفرون بالله، وكنتم أمواتاً فأحياكم، ثم يميتكم، ثم يحيكم، ثم إليه ترجعون معنى: اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم إذ خلقتكم، ولم تكونوا شيئاً، وخلقت لكم مافى الأرض جميعاً، وسويت لكم مافي السماء، ثم عطف بقوله: «وإذ قال ربك للملائكة» على المعنى المقتضى بقوله: كيف تكفرون بالله إذ كان مقتضياً ما وصفت من قوله: اذكروا نعممتى إذ فعلت بكم وفعلت، واذكروا فعلى بأبيكم آدم إذ قلت للملائكة: إنى جاعل في الأرض خليفه».

و يسترسل الطبرى في الدفاع عن رأيه، وتقديم السّند لدليله، وأن ماعرضه من رأى وماقدمه من الدليل ليس بعيداً عن كلام العرب، ولاغريباً عن نسجهم في كل مايقولون.

يقول : فإن قال قائل : فهل لذلك من نظير في كلام العرب نعلم به صحّة ماقلت، قيل: نعم، أكثر من أن يحصى .

من ذلك قول الشاعر :

أجدّك لن ترى بثُعَيْلباتٍ ولابيدانَ ناجيةً ذُمُولا

ولامـتـدارك والـشَّـمـس طِـفْـلٌ ببعض نواشغ الوادى حَمُولا(١٦٩).

فقال : «ولامتدارك»، ولم يتقدمه فعل بلفظه يعطف عليه، ولاحرف معرب إعرابه فيرد: «متدارك» عليه في إعرابه، ولكنه لما تقدمه فعل مجحود بـ «لن» يدل على المعنى المطلوب في الكلام، وعلى المحذوف استغنى بدلالة ماظهر منه عن إظهار ماحذف، وعامل الكلام في المعنى والإعراب معاملته أن لو كان ماهو محذوف منه ظاهراً، لأن قوله :

* أجدك لن ترى بثعيلبات *

بمعنى : أجدك لست براء، فرد : «متداركاً» على موضع : «ترى» كأن: لست والباء موجودتان في الكلام.

فكذلك قوله : «وإذ قال ربك للملائكة» مع مابعده من النعم التي عددها عليهم، ونبههم على مواقعها ردّ «إذْ» على موضع : «وكنتم أمواتاً فأحياكم، لأن معنى ذلك: اذكروا هذه من نعمى، وهذه التى قلت فيها للملائكة، فلما كانت الأولى مقتضية «إذْ» عطف «وإذ» على موضعها في الأولى، كما وصَفْنا من قول الشاعر في : «ولامتدارك»(١٧٠).

واضح إذاً من نص الطبرى في الدّفاع عن رأيه، والإنكار على من ادّعى زيادة إذْ أنه سلك مسلكاً علمّياً حيث عرض لشبهة أبى عبيدة في أنّ إذْ في الآية زائدة أو لغو، ومؤدى هذه الشبهة أن إذْ لم يكن قبلها كلام تعطف عليه فوجودها بعد واو العطف كلا وجود.

أجل أن إذْ وقعت بعد واو العطف في آيات أخر، ولكن لم يدع أبو عبيدة زيادتها في هذه الآيات، لأن ماقبلها من الكلام يمكن أن يعطف عليه بالواو التي بعدها إذْ .

من هذه الآيات: قوله تعالى: «وإذْ نجيناكم من آل فرعون»،(١٧١) إنّ إذْ «في هذه الآية لم يستطع أبو عبيدة أو غير أبى عبيدة أن يقول بزيادتها لأنها

سبقت بـ «اذكروا» الذي سبق في قوله تعالى : «يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التي أنعمت عليكم»(١٧٢)، ومن هنا نجد القرطبىّ يقول :

«إذْ في موضع نصب عطف على : «اذكروا نعمتى» ، وهذا ومابعده تذكير ببعض النعم التي كانت له عليهم، أى اذكروا نعمتى بإنجائكم من عدوكم وجعل الأنبياء فيكم»(١٧٣). ومنها : قوله تعالى : «وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم»(١٧٤)، أى واذكروا إذ فرقنا بكم البحر، فـ «إذ» في الآية معطوفة على إذ السابقة في قوله تعالى: «واذكروا نعمتى».

ومنها : قوله تعالى : «وإذْ واعد نَا موسى أربعين ليلة»(١٧٥) يقال في إذْ هذه ماقيل في إذْ قبلها.

ومنها : قوله تعالى : «وإذ استسقى موسى لقومه»(١٧٦) فـ «إذ» معطوفة على ماسبق حيث تقدم الفعل: «واذكروا» في قصه واحدة المخاطب فيها بنو اسرائيل.

ومن أجل ذلك كانت شبهة أبى عبيدة حيث لم يتقدم «وإذ» التي فى قوله تعالى: «واذ قلنا للملائكة اسجدوا» (١٧٧) مايعطف عليه، ومن هنا قال ما قال حول زيادتها.

ولو تدبر أبو عبيدة في الآيات التي قبلها لعلم أن الآيات السابقة لـ «واذ» كلها تذكر بنعم الله تعالى، وتنكر على الكفار والمعاندين كفرهم بالله مع وجود هذه النعم التي تملأ السموات والأرض.

ومن دون شك فإن هذه الآيات تحمل معنى : واذكروا هذه النعم إذ فعلت لكم كذا وكذا أو على حد تعبير الطبرى : «إذ فعلت بكم وفَعَلْتُ»، كذلك فإنها إلى جانب ذلك تحمل معنى: واذكروا فعلى بأبيكم آدم إذْ قلت للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ».

على أن نقد أبى عبيدة في زيادة إذْ في هذه الآية ليس مقصوراً على الطبرىّ، فقد شاركه في نقد هذا الرأى الزجاج والنحاس وجميع المفسرين، كما نقده الزجاج في قوله بزيادة «إذْ » في آية آل عمران : «إذْ قالت امرأة عمران» وقد سجلنا رأيه في هذا الموضع الذي سبق ذكره.

أما في هذه الآية وهى : «وإذ قال ربك للملائكة» فإن القرطبيّ شارك الطبري رأيه في هذا النقد، بل ورأيه في التوجيه السابق، والتقدير الذي ذكرناه.

قال القرطبيّ :

«وقال معمر بن المثنّى أبو عبيدة: إذْ زائدة، والتقدير: وقال ربك، واستشهد بقول الأسود بن يعضر:

فإذ وذلك لامهاة لذكره والدهر يُعْقب صالحاً بفساد(١٧٨)

وأنكر هذا القول الزجاج والنحاس، وجميع المفسرين

قال النحاس: وهذا خطأ لأن : «إذْ » اسم وهى ظرف زمان ليس مما تزاد.

وقال الزّجّاج : هذا اجْترام من أبى عبيدة».

ومضى القرطبى يعرض رأيه في حلّ اشكالها في هذه الآية قائلا: «ذكر الله عز وجل خلق الناس وغيرهم، فالتقدير: وابتدأ خلقكم إذ قال فكان هذا من المحذوف الذي دلّ عليه الكلام كما قال:

فإن المنية مَنْ يَخْشها فسوف تصادفه أيْنَما يراد : أينما ذهب

ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدر، تقديره: واذكر إذ قال. وقيل: هو مردود إلى قوله تعالى : «اعبدوا ربكم الذي خلقكم» (١٧٩)، فالمعنى الذي خلقكم إذ قال ربك للملائكة.»(١٨٠).

رأى ومناقشة :

أعتقد أننا أشبعنا القول في «إذْ » التي في البقرة من قوله تعالى: وإذ قال ربّك للملائكة» و بّينا خطأ أبى عبيدة في رأيه، والردود التي نُقِد بها، و بقى أن نضيف ــ إلى ماذكره المفسرون في آية آل عمران: «إذ قالت امرأةُ عمران ربِّ إنى نذرت لك مافي بطنى محرّراً [آل عمران/٣٥] ــ رأياً آخر، تقتضيه بلاغة

القرآن، أو بعبارة أخرى بلاغة الحذف، وذلك لأن هناك آيات عديدة وردت فيها «إذ» بدون أن يذكر معها فعل سابق تتعلّق به، و بخاصة في أوائل القصص القرآنية وقد درج علماء التفسير أن يقدروا لـ «إذْ » هذه فعلاً تعلق به، و يفضلون أن يكون الفعل أمراً من «ذكر» للواحد: «اذكر»، وللمخاطبين «اذكروا»، ولهذا علة أو سبب فان آيات من القرآن الكريم ورد فيها هذا الفعل بالذات . من ذلك قوله تعالى : ــ

١ ــ واذْكُروا إذْ جَعَلكُم خُلَفاء من بعد قَوْم نوح»(١٨١)

وفيها قوله تعالى :

٢ ــ «واذْكُروا اذْ كُنْتم قليلاً فكثركم»(١٨٢).

ومنها قوله تعالى :

٣ ــ واذكروا اذ أنْتم قليلٌ مُسْتَضْعَفُون في الأرض »(١٨٣).

ومنها قوله تعالى :

٤ ــ «واذكُر في الكتاب مريم إذْ انْتَبَذَتْ من أهْلِها مكاناً شرقيّاً»(١٨٤)

ومنها قوله تعالى :

٥ ــ «يأيها الذين امنوا اذْكُروا نِعْمَة اللّه عليكم إذ جَاءتْكُم جُنُود»(١٨٥).

فإذا ماوردت بعض الآيات التالية من دون اذكر» أو اذكروا» قدّر هذا الفعل المحذوف».

من ذلك قوله تعالى :

١ ــ إذْ قال اللّهُ ياعيسى بن مَرْيم اذْكُر نعمتى عَلَيْك وعلى والدِتَك»(١٨٦)

ومن ذلك قوله تعالى :

٢ ــ إذْ قال الحوارِيُّون ياعيسى بن مريم هل يستطيع رَبُّك أن يُنَزِّل علينا مائدة.»(١٨٧).

ومن ذلك قوله تعالى :

٣ ــ «إذْ جعل الذين كفروا في قلُوبهم الحَمية حَمَّية الجاهلية»(١٨٨).

وماذكرناه في هذا الرأى أشار اليه أبو البقاء في الكليات حيث يقول :

«كل ماورد في القرآن (وإذ) فـ (اذكر) فيه مضمر أى اذكر لهم أو في نفسك كيفما يقتضيه صدر الكلام.

وإذ منصوب به، وعليه اتّفاق أهل التفسير مع أن القول واقع فيه ولم يجعلوه ظرفاً له بل مفعولاً به على سبيل التجوّز مع أنه لازم الظرفية، فعدلوا عن الحقيقة إلى المجاز، لعدم إمكان اعتبار مظروفية المضاف إليه»(١٨٩).

وقبل أن أنتهى من بحث «إذْ» الزائدة في القرآن الكريم أحب أن أمر سريعاً على قضية الزيادة في القرآن الكريم، لأن الآراء التي سبقت ظاهرها منع هذه الزيادة، ورَمْيُ من قال بها بالجهل والإجْرام على حد تعبير الزجاج عن ابى عبيدة حينما قال القول الذى سَجلناه فيما سبق: «هذا اجترام من أبى عبيدة» .

قضية الزيادة في القرآن الكريم :

الواقع هناك آيات قرانية كثيرة زيدت فيها حروف، ولاتحتمل التأويل، لأن وجه الزيادة فيها أوضح من أن ينكر، وأشهر من أن يجحد وسنعرض هذه الحروف التي زيدت مؤكدين أن ذلك لايخل ببلاغة القرآن، بل لايزرى بقدسيته، ولاتعدّ هذه الزّيادة جرأة على كتاب الله، وانتساب الزيادة إليه».

أولا : زيادة الباء :

ــ من ذلك قوله تعالى : «فإن آمنوا بِمْثل ما آمنْتُم به فقد اهْتَدَوْا»(١٩٠) فإن التقدير: فان أمنوا مثل ما آمنتم به.

ــ ومن ذلك قوله تعالى : «وَأَنْفِقُوا في سبيل الله ولا تُلْقوا بأيديكُمْ»(١٩١). أى لا تلقوا أيديكم، وعبرّ بالأيدى عن الذوات.

ــ ومن ذلك قوله تعالى : «جَزاءُ سَيِّئة بْمِثْلها»(١٩٢)، فالمعنى على رأى الأخفش: جزاء سيئة مثلها، وكأنه استدل على ذلك بالآية الآخرى:
«وجزاء سَيِّئةٍ سيئةٌ مِثْلُها»(١٩٣)

ـ ومن ذلك : «وكفى بالله شهيداً»،(١٩٤) «وكفى بالله حسيباً»(١٩٥)، «وكفى بجهنّم سعيراً»(١٩٦).

ـ ومن ذلك قوله تعالى : «أَسْمِع بهم وأبْصِر»(١٩٧)، فإن المعنى : صاروا ذوى بصر وسمع.

قال الزّجاج : «وأما الدّلالة على زيادتها في قولها: أكرم به، وقوله: «أسمع بهم وأبصر»، فهى أن الفعل لايخلو من أن يكون للمخاطب أو الغائب فلو كان للمخاطب لثنى فيه الفاعل تثنيته للمخاطب، وجمع بجمعه، وأنث لتأنيثه، فلما أفرد في جميع الأحوال، ولم يعتبر به الخطاب علم أنه ليس للمخاطب، وإذا لم يكن له ثبت أنه للغائب»(١٩٨).

ـ ومن ذلك قوله تعالى : «أَلَسْتُ بِرَبِّكُم»(١٩٩)، وما هو بمزحزحه»(٢٠٠)، وما أنتم بمؤمنين»(٢٠١).

وفي قوله تعالى : «بأيِّكُم المفتون»(٢٠٤)، فقد قيل: الباء زائدة، والتقدير: أيكم المفتون.

ومن زيادة الباء التي لاتحتمل التأويل قوله تعالى :

«ألم يَعْلَم بأنَّ اللّه يرى»(٢٠٥)، والتقدير: ألم يعلم أن اللّه يرى: لقوله تعالى في أية أخرى: «و يعلمون أن الله»(٢٠٦).

وفي قوله تعالى : «وهزّى اليك بِجِذْع النّخلة»(٢٠٢)، فقد قيل: الباء زائدة والتقدير: وهزّى إليك جذع النخلة.

وفي قوله تعالى : «تَنْبُت بالدُّهن»(٢٠٣)، فقد قيل التقدير: تنبت الدّهن بزيادة الباء.

وقوله تعالى: «أقرأ باسم ربّك»(٢٠٧)، أى اقرأ اسم ربك لقوله تعالى في آية أخرى: «فإذا قرأناه»(٢٠٨).

ثانيا : زيادة من :

وكما زيدت الباء في بعض الآيات زيدت «مِنْ» ومن أمثلها:

ـــ قوله تعالى : «مَالَكُمْ مَنْ إلهٍ غيْرُهُ»(٢٠٩) أى مالكم إلهٌ

ـــ قوله تعالى : «هل من خالقٍ غَيْرُ اللهِ »(٢١٠)

ـــ قوله تعالى : «وما من إلهٍ الاّ اللّه »(٢١١)

ـــ قوله تعالى : «وما مِنْ إلهٍ الاّ الهٌ واحدٌ »(٢١٢)

ـــ قوله تعالى : «وكُلوا مِما رَزَقكُم اللّهُ حَلالا طيباً »(٢١٣)

ـــ قوله تعالى : «فَكُلوا مِما أمْسَكْن عَليكم»(٢١٤)

ثالثا : زيادة اللام :

من ذلك :

ـــ قوله تعالى : «للّذِين هم لِرَبّهم يرهبون»(٢١٥)

ـــ قوله تعالى : «إنْ كُنتم للرُّؤيا تَعْبرُون»(٢١٦).

ـــ قوله تعالى : «رَدِفَ لكم بَعْضُ الّذى تَسْتَعْجلون»(٢١٧)

ـــ قوله تعالى : «وإذْ بوّأنا لإبْراهيم مكانَ البيتِ»(٢١٨)

ثالثاً : زيادة الواو:

من ذلك :

ـــ قوله تعالى : «حتى إذا فُتِحتْ يأجوج ومأجوج»(٢١٩) جوابه قوله:

«واقترب الوعد الحق» .(٢٢٠) قال الفراء : الواو مقحمة.(٢٢١)

ـــ قوله تعالى : «فلما أسلما وتله للجبين»(٢٢٢) الواو زائده، أى تَله.

ـــ قوله تعالى : «إذا السّماء انشقت وأذنت لربها وحقت»(٢٢٣). الواو مقحمة»(٢٢٤).

رابعاً : زيادة «لا»

من ذلك :

ـ قوله تعالى : «غير المغضوب عليهم ولا الضالين »(٢٢٥).

قال : (لا) في قوله : «ولا الضالين» زيادة، «وجاءت، زيادتها لمجيء (غير) قبل الكلام، وفيه معنى النفى، ألا ترى أن التقدير: لامغضوباً عليهم ولا الضالين، وكما جاء: «وما يَسْتوِى الأحْيَاء ُولا الأموات»،(٢٢٦)، فكرر «لا» وهى زيادة، وكذلك هذا»

ـ ومن ذلك :

ـ وقوله تعالى : «وما يُشْعِرُكم أنَّها إذا جاءت لايؤمنون»(٢٢٧). فـ«لا» زائدة والمعنى : ومايشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون .

ـ ومن ذلك :

ـ قوله تعالى : «وحرامٌ على قرية أهلكناها أنَّهم لايَرْجعون»(٢٢٨).

ـ قالوا «لا» زائدة، والتقدير: «وحرام على قرية أهلكناها رجوعها إلى الدّنيا.

ـ ومن ذلك :

قوله تعالى : «لئلاّ يَعْلم أهْلُ لكتاب»(٢٢٩)، قالوا : التقدير : ليعلم أهل الكتاب، و«لا» زائدة، أجمعوا على هذا(٢٣٠).

ـ ومن ذلك :

ـ قوله تعالى : «ما مَنَعك ألاّ تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُك»، والتقدير: مامنعك أن تَسْجُد، فـ«لا» زائدة(٢٣١).

خامساً : زيادة «ما»

من ذلك :

ـ قوله تعالى : «فبما رحمة من اللّه»(٢٣٢).

ـ قوله تعالى : «فبما نَقْضِهم ميثاقَهُم وكفرِهِمْ» (٢٣٣)

ـ قوله تعالى : «فبما نَقْضِهم ميثَاقَهُمْ لعنّاهُمْ»(٢٣٤)

ـ قوله تعالى : «عمّا قليل ليُصْبحُنَّ»(٢٣٥) أى عن قليل.
ـ قوله تعالى : «جندما هنالك»(٢٣٦) أى جند هنالك(٢٣٧).

وبعد، فهذه نصوص سقتها لأثبت في ضوئها أن حروف الزيادة تقع في القرآن وليس وقوعها اعتباطاً أو جزافاً، لأن الأسلوب يقتضيها، حقاً إن زيادتها من مقتضيات المعنى ولكن، وجودها أيضاً من مقتضيات الأسلوب، وفرق بين المقتضى في مجال المعنى، والمقتضى في مجال الأسلوب.

وذلك أن الأسلوب هو من نسج العربية، والعربيَّة لا تنكر مثل هذه الأساليب التي تزاد في الحروف، ولا تستطيع أن نقول: إن القرآن الكريم جاء على أساليب لم يعرفها العرب، وإلاّ فما الداعي للتحدي، إذا كان أسلوبه مختلفاً ونمطه متبايناً، وطريقته في التعبير على غير نسق تعبيرهم.

إنّ هذه الحروف زائدة في المعنى، ولكنها طريقة أسلوبيَّة جرى عليها القرآن الكريم وفق بعض الاساليب العربية الشائعة والقرآن من جنس مايتكلمون، وأسلوبه جار على أساليب مايقولون، ومن هنا كان تحدّيه لهم أتمّ، وعجزهم عن مجاراته أبلغ. ولذلك كان ابن بحر غير مستوعب لقواعد العربيّة حينما ادعى أن هذه الزيادة شذوذ و «الأولى ألا يكون في كلام الله شذوذ، ومايستغنى عنه»(٢٣٨).

وهذا الادعاء ذكره ابن بحر حينما تعرض بعض المفسّرين للآية القرآنية «لئلاّ يَعْلَم أهلُ الكتاب»(٢٣٩)، وقالوا : إنّ «لا» زائدة، والقائل وإن كان مجهولاً عند صاحب إعراب القرآن ـ فقد كشف عنه القرطبى حينما تعرض لهذه الآية فقال: إن «لاصلة زائدة مؤكدة» قاله الأخفش.

وقال الفراء : معناه : لأن يعلم و«لا» صلة زائدة في كل كلام دخل عليه .

قال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت : لئلا يعلم أهلُ الكتاب أى لأن يعلم أهل الكتاب.

وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج مثانبيٌّ يقطع الأيدى والأرجل فلما

خرج من العرب كفروا فنزلت : لئلاّ يَعْلم» أى ليعلم أهل الكتاب»(٢٤٠) ومع اتفاق أهل اللغة والنحو وقدامى المفسرين أمثال قتادة، وابن مجاهد فإن ابن بحر هذا أنكر هذه الزيادة، واعتبرها شاذة، والشذوذ في كتاب الله سوء أدب، ومحض افتراء، وكتاب الله منزه عن هذه الشذوذ ونحن نحمد لابن بحر غيرته على كتابه الله، ولكن لانحمد له إنكاره هذه الزيادة واعتبارها شذوذاً، وقبل أن نردّ عليه ناقدين رأيه نحب أن نعرف من هو «ابن بحر هذا»؟ في هامش إعراب القرآن المنسوب للزجاج الذى حققه الأستاذ الفاضل ابراهيم الأ بيارى يميط اللثام عنه فيقول: «هو أبو عثمان بين بحر الجاحظ المتوفى ٢٥٥هـ، ومن كتبه: «مسائل القرآن» ولعله هو الذى منه النقل هنا».(٢٤١).

وفي رأيى أن ابن بحر هذا أشك أنه أبو عثمان بن بحر الجاحظ لأمرين: الأمر الأ ول أن الجاحظ ليس جاهلاً بقواعد العربية كما يدعى صاحب إعراب القرآن، فالجاحظ موسوعة في كل ضروب المعرفة السائدة في عصره، وليس من المعقول أن يكون الجاحظ جاهلاً بقواعد العربية ، وهو يعلم مكانتها في الأدب، وقدرها في الفكر، إنها الوسيلة الأ ولى لتحصيل المعرفة.

الأمر الثاني : أن الجاحظ مشهور في كتبْ التراث، و بين علماء عصره بالجاحظ ، وليس بابن. بَحْر.
على أية حالة كانت . إن ردّ صاحب اعراب القرآن على ابن بحر في ادعائه أن حروف الزيادة في القرآن شذوذ رَدُّ مفحم، وقوى، لأنة مؤيد بالحجج مسنود بالبراهين.
قال : «وحمل ابن بحر زيادة «لا» على الشّذوذ جهلٌ منه بقواعد العربيّة، وليس كل من يعرف شيئاً من الكلام يجوز له التكلّم على قواعد العربيّة .

وليس كون : «لا» زائدة في فحوى خطاب العرب مما يكون طعناً من الملحدة على كلام الله، لأن كلام الله منزّل على لسانهم، فما كان متعارفاً على لسانهم لايمكن الطعن به على كتاب الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

وكيف يكون زيادة: «لا» شاذة، وقد جاء ذلك عنهم وشاع كقول الهُذليّ.

أَفَعَيْنِكِ لابَرْقٌ كأنّ وَمِيضَهُ غابٌ تَسَنَّمهُ ضِرامٌ مُثْقَبُ(٢٤٢)

أى أفمن ناحيتك أيتها المرأة هذا البرق الذي يشبه ضوؤه ضوء غاب.

وانشد أبوعبيدة للأحوص :

وتَلْحَيْنَنِي في اللَّهوِ ألاَّ أُحِبَّهُ وللهْوِ داعٍ دائب غَيرُ غافلِ(٢٤٣)

أى : أفى اللهو أن أحبه و«لا» زائدة.

ومنه ماأنشده سيبويه لجرير:

مابالُ جَهْلِكِ بعد الحِلْم والدين وقد عَلاكَ مَشيبٌ حِيَن لاحين(٢٤٤)

«لا» فيه زائدة، إذا قلت : علاك مشيب حين حينٍ فقد أثبت: «حيناً» علاه فيه المشيب، فلوجعلت: «لا» غيرزائدة لوجب أن تكون نافية على حدّها في قولهم: جئت بلامال، وابُتُ بلاغنيمة، فنفيت ما أثبت من حيث كان النفى بـ«لا» عامًّا منتظما لجميع الجنس.

فلما لم يستقم حمله على الجنس لتدافع العارض في ذلك حكمت بزيادتهما فصار التقدير: حين حينٍ، وهو من باب : حلقةُ فضّةٍ، وخاتم حديدٍ، لأن الحين يقع على الزمان القليل كالساعة ونحوها وعلى الطويل كقوله تعالى : «هل أتى على الانسان حينٌ من الدّهر»(٢٤٥) وعلى ماهو أقصر من ذلك كقوله تعالى: «تُؤتِي أُكلَهَا كُلَّ حِينٍ»(٢٤٦) فصار : حينَ حينٍ كقوله:

* ولولا يوم يوم ما أردناه (٢٤٧)

ومنه قول الشماخ :

أعائِشُ مالأهْلِكَ لاأرَاهُم يُضيِعون الهِجَان مع المُضيع(٢٤٨)

وروى التوّزيّ عن أبى عبيدة أن : «لا» زائدة.

ومنه قول المرار بيت الكتاب :

ولاينطِق الفحشاء من كان مِنهُم إذا جَلَسوا منّا ولامِنْ سَوائنا»(٢٤٩)

ثم قال في ختام نقده لابن بحر: «وزيادة الحروف في التنزيل كثير»(٢٥٠).

وبعد هذه الجولة الفكرية في قضية خطيرة، وهى قضية الزيادة في القرآن الكريم وضح لنا أن زيادة الحروف ليست ضرباً من اللغو، ولكنها أسلوب جرى على نهجه العرب، ونسج على منواله فصحاؤهم وبلغاؤهم.

هذا بالنسبة للحروف أما بالنسبة للأسماء، فاننى لاأعترف مطلقاً بهذه الزيادة، لأن الأسماء، ماوضعت الآ لتدل على المعانى، وبالأسماء تتم أجزاء الجملة، وأذا ما زيد اسم لامعنى له أدى ذلك إلى تمزيق أوصال الجملة، وتحويلها إلى جملة لا تؤدي إلى معنى.

ومن هذه الأسماء «إذْ» وهى في معظم أحوالها ظرف جاء لغرض، واسم جاء لمعنى فالقول بزيادتها رأى مجحف. وقد عرضنا الآراء النقدية التي صَوبت سهامها نحو من قال بزيادتها. ونكتفى بهذا القدر من البحث في إذْ الزائدة، ولعلنا قد أشبعنا القول فيها

وقبل أن ننتهى من بحث إذْ الزائدة نحب أن نشير الى مسألتين تتعلقان بـ «إذْ» من حيث الاعراب والمعنى، وهما:

أ ــ جرّ إذْ بالإضافة بعد : «بَعْد».
ب ــ دخولها على أداة شرط جازمة .
وسنتناول هاتين النقطتين في ضوء المعنى والتركيب .

أما جرّ إذ بالإضافة بعد بَعد فإن النحويين يقولون: إن إذ في أغلب أحوالها لاتخرج عن الظرفية، فهى من الظروف غير المتصرفة أى اللازمة للظرفية. والظروف غير المتصرفة منها «مالايخرج عن الظرفية أصلاً مثل قطُّ، وعوضُ، تقول: مافعلته قطُّ، ولاأفعله عوضُ» ومنها: «مايخرج عنها إلى شبهها وهو الجرّ نحو: قَبلُ، وبَعْد، ولدن وعند، فيقضى عليهن بعدم التصرف» مع أن حين تدخل عليهن إذْ لم يخرجن عن الظرفية إلاّ إلى مايشبهها، لأن الظرف والجار والمجرور سيان في التعلُّق بالاستقرار، والوقوع خبراً، وصِلة، وحالاً، وصفة»(٢٥١).

وإذ من الظروف الملازمة للظرفية، ولكنها تخرج عن الظرفية إلى شبهها حينما تجرّ بـ«بعد» .

قال الرّضي: «وتلزمها الظرفيّة إلاّ أن يضاف إليها زمان كقوله تعالى: «بعد إذْ نَجّانا اللّهُ مِنْها»(٢٥٢)، وقوله تعالى: بعد إذ أنتم مسلمون»(٢٥٣)، ثم قال: «ولم يعهد مجروراً باسم إلاّ بـ«بعد»(٢٥٤) ومعنى ذلك أن إذْ الظرفيّة ملازمة دائماً للظرف، ولكنها تخرج عن الظرفية إذا جرّت: بـ «بعد»، ولها في ذلك نظير. فـ «قبل» و «بعد» و «لدن» و «عند» ظروف تخرج عن الظرفية إلى شبهها وهو الجرّ بحرف: «مِنْ» مثل : «لله الأمر من قبل ومن بعد»(٢٥٥) وأماّ دخول إذْ على الشرط، فالنحويون، وعلى رأسهم سيبويه يرون أنه إذا دخلت: «إذْ» على أداة شرط جازمة امتنع جزم الأداة لأن الجزاء في غير موضعه، أو بعبارة أخرى: إن «إذْ» إذا دخلت على أداة الشرط الجازمة ألغت وظيفة الشرط .

يقول سيبويه: «فمن ذلك قولك: أتذكر إذْ من يأتينا نأتيه.. وإنما كرهوا الجزاء ها هنا، لأنه ليس من مواضعه، ألا ترى أنه لايحسن أن تقول: أتذكر إذْ إنْ تأتنا نأتك، كما لم يجز أن تقول: إنّ إنْ تأتنا نأتك. فلما ضارع هذا البابُ باب إنّ و«كان» كرهوا الجزاء فيه»(٢٥٦).

وفي ضوء نص سيبويه يتضح لنا أن إذْ ألغت عمل أدوات الشرط الجازمة حينما دخلت عليها. والسبب في ذلك يشير إليه سيبويه حينما يقول: إنه لايحسن أن تقول: أتذكر إذْ إنْ تأتنانأتك» لأن إن الشرطية الجازمة تدل على المستقبل على حين إذ الظرفية تدلّ على الماضي، والتقاء الماضي والمستقبل مستحيل عقلاً ووجوداً.

من أجل ذلك حينما تدخل إذْ تتجرّد إنْ الشرطية من معنى الجزاء وإذا جردّت من معنى الجزاء جردت من التأثير في الأفعال التي بعدها، فتبقى كما هي، والسبب في ذلك إذْ.

وهذا التفسير الذي هديت اليه لنص سيبويه. يؤيده قول سيبويه في نفس الموضع: «وتقول : أنذكر إذْ نحن من يأتنانأته، فنحن فصلت بين «إذْ» و

«من»(٢٥٧)، والفصل بـ «نحن» وقف حائلاً بين الزمنين الماضي المتمثل في إذْ، والمستقبل» المتمثل في «مَنْ» الشرطية. ومن أجل ذلك صحّ الجزم بـ «من» لوجود الفاصل: «نحن»

وأما إذا دخلت إذْ على أداة شرط جازمة في الشعر، فأنه يجوز الجزْم على الضّرورة.

يقول سيبو يه :

«وقد يجوز في الشعر أن يجازى بعد هذه الحروف، فتقول: أتذكر إذْ من يأتنانأته، فإنما أجازوه لأن إذْ وهذه الحروف لا تغير ماذخلت عليه عن حاله قبل أن تجيء بها، فقالوا : ندخلها على: من يأتنا نأته، ولانغيرّ الكلام كأنا قلنا، من يأتنانأته، كما أنا إذا قلنا: إذْ عبدالله منطلق، فكأنا قلنا : عبدالله منطلق، لأن إذْ لم تحدث شيئاً لم يكن قبل أن نذكرها»(٢٥٨).

و بهذا النصّ، وضع سيبو يه النّقاط على الحروف في تفسير جواز الجزم بأداة الشرط مع دخول إذْ عليها في باب الشعر.

وسبب الجواز أن إذْ دخلت بعدما حدث التركيب الشّرطيّ بالأداة فكأن إذْ لم تحدث فيه شيئاً.

ولاشك أن سيبو يه أحسّ بالحرج في هذا الجواز، فأراد أن يفسّر جواز هذا الأسلوب في الشّعر فقط من باب الضرورة، أماً في النّثر فإن هذا الأسلوب مرفوض كما قلنا لاختلاط الماضى بالمستقبل مما يسبب اضطراباً في معنى الجملة، ولذلك فإن الشرط مع إذْ كلا شرط.

و يعلق ابن جنى على قول القائل :

* أتذكر إذ من يأتنانأته *

فيقول : «فلا يجوز إلاّ في ضرورة شعر»(٢٥٩)